

مدينة سيدي بلعباس

”ودورها في اجتماع القادة قبل تفجير الثورة“

أ. سيد أحمد بلبوري / جامعة وهران.

تطورات سريعة فريدة من نوعها إذا ما قورنت بمدن أخرى شهدت الساحة العباسية في المراحل الأولى قبل تفجير ثورة أول نوفمبر 1954 حيث أصبح الحديث في إطاره السري عن التحركات والاتصالات بين القادة السياسيين ضربا من الحقيقة بعد الوهم والاستكانة والتمني، ذلك أن السياسة الفرنسية المنتهجة أدت إلى تفاقم الوضع وتصعيد المضايقات والمتابعات والملاحقات ضدّ مناضلي الأحزاب إبان الحركة الوطنية وعلى وجه الخصوص أولئك المنخرطين في المنظمة السرية أو الخاصة L'OS (1).

ولا يخفى على أحد ما للاتصال قبيل وخلالها من أهمية بالغة في تنسيق العمل وتظافر الجهود بين الجهات والأفراد، ولا شك أن بدايات الاتصال عند انطلاق الثورة التحريرية تختلف كلية في الاتصال المهيكل والمؤطر فلم هذه الاتصالات وكيف اختيرت مدينة سيدي بلعباس كمحطة اتصال وهمزة وصل لقاء بين القادة والساسة من المناضلين ؟

قبل الردّ عن هذا الاستفسار يجدر بنا بادئ ذي بدء أن نعرض على الوضع العام للمدينة قبل 1954 في مختلف مجالاته، فعلى الصعيد الاقتصادي كانت المدينة تزخر بالموارد الإنتاجية كونها منطقة فلاحية بالدرجة الأولى وقطبا تجاريا هاما على شاكلة مدن وأرياف الهضاب من حيث الانتعاش الاقتصادي والطفرة النوعية للحبوب والكروم التي أدت إلى زيادة الدّخل من حيث الرواج وتحسين الأداء والمستوى المعيشي للأفراد الأوروبيين.

أما في المجال الاجتماعي ونتيجة للتجانس الذي أفرزه النسيج العمراني والديموغرافي كسيفساء متناسق ومتناغم ما بين الفرنسيين والأسبان واليهود، عاش السّكان في فيض من الرخاء والرفاهية، وفي كنف السعادة والأمن والاستقرار وكانت المدينة المفضلة للفرنسيين على شاكلة باريزهم الكبرى من حيث طيب المقام والإبداع في مجالات العمارة فهي آمنة بسبب تواجد أسلاك الأمن من جيش ودرك وشرطة إضافة إلى فيالقة من اللصيف الأجنبي التي وفرت حراستها لها ولساكنتها الاستقرار والهدوء لكن

الأهالي العرب فمأواهم الفقر والجهل والمرض والحرمان.

وفي هذا السياق لا مناص من التطرق إلى المسار التاريخي لشخصية ثورية فذة كان لها الفضل في اختيار الحديقة العامة لمدينة سيدي بلعباس كمحطة لقاء ظريفي عابر سيعمل راسخا في الذاكرة الجماعية أبد الدهر وسجلا مشرفا قلما تعرض له الباحثون بالتحليل والتمحيص، إنه الشهيد حميدة زبانة (2)، الذي حدد يوم ومكان الاجتماع بعيدا عن العين والرقيب خصوصا بعد خروجه من السجن ونفيه خارج وهران وتضييق الخناق عليه في تحركاته وسكناته، اختار بلعباس لأنها تعج بالوافدين الراغبين في التسلية والترفيه إضافة إلى ساكنتها التي تنعم برغد العيش من منتزهات وحانات ومقاهي وجو ملؤه الحيوية والنشاط ففي مثل هذا المشهد يمكن للغرباء عن المدينة التجوال في ساحاتها دون إثارة الانتباه إليهم كما يتسنى لهم الالتقاء والجلوس للتباحث وتدارس الأوضاع بكامل الحرية.

ولا يمكن التركيز من خلال هذا السرد التاريخي على مدينة سيدي بلعباس فقط دون الرجوع إلى الوازع الرئيسي والخلفية التاريخية للشهيد (3) أحمد زبانة لتتضح وضعية المدينة وتداعياتها بجلاء، فبعد خروجه من السجن، وبعد إقامة قصيرة في كل من مدينتي مستغانم ومعسكر، استقر ردها من الزمن بقرية جنين مسكين التابعة لدائرة زهانة حاليا Sain Lucien حيث اشتغل بمصنع الإسمنت لاكادو LA CADO القريب من مكان إقامته كلحام، وقد تم تشغيله دون معرفة ودرايه إدارة المصنع بشأنه وحتى وضعيته تجاه العدالة الفرنسية وما صدر عنها من أحكام تخصه، إذ كان أحد المناضلين قد قام بتزوير الأوراق الشخصية لصالحه.

وفي حدود 1953 منع من الإقامة بوهران لهذا كان يخاطر بنفسه ويجازف حين التردد عليها من أجل لقاء المناضلين، فارتأى في ما بعد أن يكون اللقاء في الأسبوع في قرية زهانة، إذ كان الحوار في مجمله يدور حول الصراع القائم بين المصاليين والمركزيين داخل حركة الانتصار للحريات الديمقراطية MLTD، حيث طال أمد الاجتماعات قرابة 8 أشهر ابتداء من شهر مارس 1954 إلى اندلاع الثورة، وكان الغرض منها التباحث حول ظروف القيام بالعمل المسلح والإسراع في التنفيذ.

ونظرا للصراع المتأجج داخل الانتصار أمر زبانة المناضلين بالابتعاد عن المجموعتين المتناحرتين إلى أن يصحو الجو، وفي شهر جويلية 1954 توجه فيزي صالح إلى مدينة سيدي بلعباس للاتصال بأحمد زبانة (4) وعند وصوله إلى المكان المحدد وجد زبانة بصحبة

أحد المناضلين وهو بن محجوب عضو في المنظمة السرية L'os، وبعد وجبة الغذاء توجه الثلاثة - أحمد زبانة، فيزي صالح، بن محجوب - إلى الحديقة العمومية لسيدي بلعباس، واثروصولهم طلب زبانة من رفاقه أن ينتظروا بعيدا، كي يتسنى له لقاء بن علا وبين عبد المالك رمضان الذين كانا يجلسان على نفس المقعد لكنهما يتظاهران بعدم معرفتهما لكليهما، وبعد اجتماع دام زهاء خمس وأربعين دقيقة تفرق المناضلون الثلاثة - زبانة، بن علا، بن عبد المالك رمضان - وأخذ كل طريقه مغادرين المكان، في حين رجع زبانة إلى رفيقه وهو صامت وفي نفس الوقت على الساعة السادسة مساء ركب القطار المتوجه إلى وهران كلا من أحمد زبانة وصالح فيزي، وقبل وصول القطار إلى محطة جنين مسكين أعطى زبانة الأوامر التالية إلى فيزي صالح :

تبليغ مناضلي زهانة ووهران بالتوجه يوم 08-08-1954 إلى غابة عين قرانين لحضور اجتماع هام والمكوث بالغابة طيلة الليل(5) .

ويتضح من خلال استفسارنا فيزي صالح عن مضمون وفحوى لقاء سيدي بلعباس أنه كان مثمرا ومصيريا، وأسفر عن النتائج التالية : القيام بالعمل المسلح في ظل وحدة الشعب، كتمان السر، المقاومة بأي وسيلة من أجل الاستقلال.

ومن خلال هذا المنظور نجد أن مدينة سيدي بلعباس قد احتضنت قادة الثورة ولولفترة زمنية مقتضبة غير أنها تركت بصماتها في المسار التاريخي للثورة المجيدة منذ مراحلها الأولى وكانت سببا ووازا رئيسيا في دفع عجلة النضال قدما نحو الأمام فطوبى لها ولساكنيها.

الإحالات

1- محمد عوان : " أول نوفمبر في الغرب الجزائري " ، ص 8.

2 - L'écho d'Oran, le 02.11.1954, N° 30.061 P : 08.

3- L'houri Benzakhroufa : « En marge de souvenir de Zabana », in Le quotidien d'Oran 19.06.1996. P : 15.

4 - شهادة عن اندلاع ثورة الفاتح نوفمبر 54 بالغرب الجزائري - المنظمة الوطنية للمجاهدين بوهـران ترجمة - دويلي عبد الحميد 1999 ، ص : 01 .

5 - بوعلام العرجة - " المجاهد كويني يتذكر " -

جريدة الجمهورية 01-11-1994 ، ص : 06 .